محنة المسلمين في البلقان

(١)

كثيراً ما تحلّ محن بشعوب على أيدي شعوبٍ أخرى أكثر منها قوةً، أو عدداً، أو استعداداً رغبة في سيطرة أو نهب ثروة أو انتقاماً لحادث، أو إذلالاً، أو حقداً على مبدأ أو عقيدة، وربما تنتهي الرغبة في السيطرة ويزول الطمع في نهب الثروة، وينقضي عهد الانتقام وتمضي مرحلة التشفي وتتبدّل محبة الإذلال، وقد يتفق شعبان بعد طول خلاف، وتلتقي أمتان بعد مرحلة نزاع، وتجتمع دولتان بعد مدة من صراع، غير أن أحقاد الكفر على الإسلام لم تهدأ منذ أن وجد الإسلام إلى هذه الساعة التي نُسطّر فيها هذه العبارات بل إلى آخر الأيام وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولم تعرف مدة من فتور فيما مضى ولا هدنة في وقت انقضى، فسيوف الكفار مصلتة دائماً، ورماحهم مشرعة وسهامهم موجّهة أبداً على الإسلام وذلك لأنه يقف أمام أطماعهم العدوانية ويحول دون تحقيق شهواتهم الدنيئة، ويمنع ظلم الأقوياء، وجشع الأثرياء، وفي الوقت نفسه فيه قوة ذاتية تردع من يريد أن يتخطى الحدود التي رسمها والنهج الذي يسير عليه.

ويلتقي المخالفون صفاً واحداً، ويشكلون جبهة واحدة، ويرسمون سياسة واحدة، ويُواجهون الإسلام. يلتقي من يُقدس البشر، ومن يعبد البقر، ومن يسجد للحجر، ومن يُؤله الشجر لا فرق بينهم بل تفضل الأمم التي تدعي عبادة الخالق من يعبد المخلوق من تلك الجماعات على الذي يعبد رب العباد وينتمي إلى الإسلام، وكم وقفت الأمم النصرانية إلى جانب عبدة البقر والوثنيات الأخرى ضد المسلمين، وأمدتهم بالطاقات كلها، ودعمتهم بكل ما يريدون وساعدتهم عليهم.

وما أن يشعر المخالفون بضعف المسلمين حتى تظهر الأحقاد، وتبدو الضغائن، ويتحرك من لم تكن نفسه تُحدثه بالحركة، ويُشجع بعضهم بعضاً، ويدعم بعضهم بعضاً، ويؤيد بعضهم بعضاً، ويُهاجمون المسلمين بذرائع شتى، وأنواع من الحجج، ومطالب باطلة، وتبدأ وسائل الإعلام بأنواعها المختلفة بحرب دعائية، وهجمات إعلامية.

ولما كان المخالفون يعرفون من تاريخهم الطويلة ولقاءاتهم مع المسلمين أن في الإسلام قوة ذاتية يصعب التغلب عليها مهما كانت القوة التي أمامها ضخمة. وتنشأ تلك القوة الذاتية من العاطفة الإسلامية، وذلك عندما يكون القتال في سبيل الله، وهو

ما يعرف بالجهاد، أي قتال الذين يقفون في وجه الدعوة إلى الله ونشر الإسلام، أو التصدّي للجيوش المسلمة المنطلقة لقتال الكفار، ويُسمي المخالفون ذلك «الحرب الدينية». فإذا أعلن المسلمون الجهاد اشتدّ ساعدهم، وزادت عزيمتهم، وانطلقوا لا يبالون بل يطلبون الشهادة في سبيل الله، وارتفعت معنوياتهم، وتقدموا يدحرون من أمامهم، ويدوسون من يقف في وجههم، وربما تزداد قوة المسلمين فيما إذا حدث اعتداء عليهم حيث يكون الجهاد عندها فرض عين، وعلى كل مسلم أن يهبّ في سبيل الله للدفاع عن ديار الإسلام وعقيدة أهلها. ولهذا كان المخالفون يحرصون أشدّ الحرص ألا يكون الصراع دينياً -حسب اصطلاحاتهم- خوفاً من إعلان الجهاد الذي يشحن النفوس قوةً وعزيمةً، ويرفع المعنويات، ويُرهب الأعداء، ويحاولون أن يخلعوا على ذاك الخلاف الجانب العنصري، فيقولون: الصراع بين البوشناق والصرب، أو بين الألبان والصرب و... بين الكروات والبوشناق، أو بين الألبان والكروات حتى لا تثار العاطفة الدينية ويكون القتال نوعاً من الجهاد، وربما جعلوا الصراع على الأرض ومهما بالغوا في ذلك فهو أفضل عندهم من إعلان الجهاد.

ولإثارة الصرب لأنفسهم قالوا: كل أرض دخلها الصرب إنما وهبهم إياها الرب والتخلي عنها إثم، وطرحوا ذلك على شعبهم.

ضعفت الدولة العثمانية لأسباب شتى، وشعرت دول أوربا بذلك، فتداعت والتقت بعضها مع بعض دولها المتناحرة: بريطانيا، فرنسا، النمسا، ألمانيا، إيطاليا، ومذاهبها المتنافرة: الكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت، وشعوبها المختلفة الفرنجة، الجرمان، الطليان، والسلاف... التقوا جميعاً ضد العثمانيين على حين كان المسلمون موزعين لا يسندون الدولة العثمانية بل أخذت العصبية الجاهلية تظهر، وتحركت الطوائف، ورفع أهل الذمة رأسهم، وهذا ما زاد من ضعف الدولة التي كانت أقوى الدول الإسلامية يومذاك، والتي تقف في وجه الدول الأوربية.

١١- سليم الثاني:

كان ضعيفاً، تولى الخلافة بعد أبيه سليمان القانوني.

عقدت الدولة العثمانية صلحاً مع النمسا عام ٩٧٦هـ (١٥٦٨م) اعترفت فيه بأملاك النمسا في المجر على أن تدفع

النمسا مقابل ذلك الجزية السنوية المقررة، ومقابل اعترافها أيضاً بتبعية أمراء تراتسلفانيا، والأفلاق، والبغدان للدولة العثمانية.

جددت الدولة العثمانية المعاهدة مع بولونيا مع اعتراف العثمانيين بالتحالف الذي تم بين ملك بولونيا وأمير البغدان.

وجُددت المعاهدة مع فرنسا عام ٩٧٧هـ (١٥٦٩م)، وأيّد الخليفة الامتيازات القنصلية، فبدأت فرنسا ترسل إرساليات تنصيرية كاثوليكية إلى رعاياها في الدولة العثمانية، وبدأ العمل من الداخل ضد العثمانيين، وتربية النصارى على الارتباط بفرنسا.

دخلت الدولة العثمانية جزيرة قبرص عام ٩٧٨هـ (١٥٧٠م) وكانت تتبع إمارة البندقية من قبل، وأصبحت تتبع الدولة العثمانية.

احتلت إسبانيا تونس وخرج منها العثمانيون عام ٩٨٠هـ (١٥٧٢م).

حدثّ تمرّد في إمارة البغدان، ولكن قضي عليه عام ٩٨١هـ (١٥٧٣م).

١٢- مراد الثالث:

تولّى الخلافة بعد وفاة أبيه سليم الثاني عام ٩٨٢هـ (١٥٧٤م).

أصبحت بولونيا تحت الحماية العثمانية عام ٩٨٣هـ (١٥٧٥م).

جدّدت الدولة العثمانية للدول الأوربية امتيازاتها، وهي فرنسا والبندقية، وكانت سفن الدول الأوربية تدخل الموانئ العثمانية تحت ظلّ العلم الفرنسي عدا البندقية. ثم حصلت بريطانيا على الامتيازات.

هُزمت الدولة العثمانية أمام النمسا التي دعمت المجر، واحتلّت عدة قلاع.

أعلن أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا التمرّد وانضمّوا إلى النمسا التي تُقاتل العثمانيين فسار إليهم سنان باشا الصدر الأعظم عام ١٠٠٣هـ (١٥٩٤م) ودخل بخارست عاصمة الأفلاق، إلا أن أمير الأفلاق قام برد فعل، وانتصر على العثمانيين الذين انسحبوا إلى ما بعد نهر الدانوب، وخسروا عدة مدن.

١٣- محمد الثالث:

تولّى الخلافة عام ١٠٠٣هـ (١٥٩٤م) بعد وفاة أبيه.

هُزمت الجيوش العثمانية أمام أمير الأفلاق ميخائيل الذي دعمته النمسا، فضمّ إليه البغدان وترانسلفانيا. فقاد الخليفة الجيوش بنفسه فهزم جيوش المجر والنمسا عام ١٠٠٥هـ (١٥٩٦م) واستمرت المعارك بين الطرفين سجالاً.

١٤- أحمد الأول:

تولّى الخلافة بعد وفاة والده عام ١٠١٢هـ (١٦٠٣م).

عقدت الدولة العثمانية صلحاً مع النمسا عام ١٠١٥هـ (١٦٠٦م)، تخلّصت فيه النمسا من الجزية، وبقيت المجر تتبع الدولة العثمانية.

جرت حروب بحرية بين السفن العثمانية وسفن إسبانيا، ورهبان مالطة، والإمارات الإيطالية، وغالباً ما كانت الهزيمة تلحق بالعثمانيين.

وجدّدت الدولة العثمانية امتيازات فرنسا وبريطانيا كما حصلت هولندا على امتيازات مثل سابقتيها.

جدّدت الدولة العثمانية الاتفاقية مع بولونيا.

١٥- مصطفى الأول:

تولّى الخلافة بعد وفاة أخيه أحمد الأول عام ١٠٢٦هـ (١٦١٧م)، وبقي ثلاثة أشهر.

١٦- عثمان الثاني:

تسلّم الخلافة بعد عزل عمه مصطفى الأول.

أعلن الحرب على بولونيا لتدخلها بشؤون إمارة البغدان عام ١٠٢٩هـ (١٦٢٠م)، ثم عُزل، وقُتل، وأُعيد عمه مصطفى الأول. ثم عُزل.

١٧- مراد الرابع:

تولّى الخلافة بعد عزل عمه عام ١٠٣٢هـ (١٦٢٣م)، وهو ابن أحمد الأول، وتوفي عام ١٠٤٩هـ (١٦٣٩م).

١٨- إبراهيم الأول بن أحمد الأول:

تولّى بعد وفاة أخيه مراد الرابع، وتوفي عام ١٠٥٨هـ (١٦٤٨م).

١٩- محمد الرابع:

تولّى بعد وفاة أبيه.

انتصرت البندقية على أسطول عثماني، واحتلّت جزيرتين عند مدخل مضيق الدردنيل تتحكّمان به وتحميانه فتحكّمت البندقية بهذا المضيق، وحالت دون وصول المواد الغذائية إلى استانبول عن طريق هذا المدخل، فارتفعت الأسعار، ولم تسترد الدولة العثمانية هاتين الجزيرتين إلا بعد مرور وقت.

وقعت الحرب بين السويد وبولونيا فطلب ملك السويد من العثمانيين المساعدة على أن تكون بولونيا تحت الحماية العثمانية، ولكن رفض الصدر الأعظم ذلك، واتفق أمير ترانسلفانيا مع أميري الأفلاق والبغدان التفاهم مع السويد ومحاربة بولونيا، فعزلت الدولة العثمانية هؤلاء الأمراء وعيّنت غيرهم في أماكنهم، فعصى أمير ترانسلفانيا الأمر، وحارب العثمانيين وانتصر عليهم، فسار إليه الصدر الأعظم محمد كوبريلي وهزمه ففرّ من البلاد، ولم يلبث أن عصى أمير الأفلاق بعد عودة الجيوش العثمانية إلى استانبول، وأعلن التمرّد، فرجع الصدر الأعظم إليه وأخضع الثائرين.

دعمت فرنسا سراً البندقية في جزيرة كريت فضعفت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا، ثم توترت فدعمت فرنسا البندقية علناً في كريت وأنجدتها بقوة.

توفي الصدر الأعظم محمد كوبريلي عام ١٠٧٢هـ (١٦٦١م)، وخلفه ابنه أحمد كوبريلي وقد رفض الصلح مع النمسا والبندقية، وسار على رأس جيشٍ لقتال النمسا وتمكّن عام ١٠٧٤هـ (١٦٦٣م) من فتح قلعة (نوهزل) أعظم قلعة شرق العاصمة فيينا، ثم دخل مورافيا وسيليزيا فأرعب أوربا، واضطر

ملك النمسا ليوبولد أن يطلب من البابا ويرجوه للعمل على مساعدة فرنسا، فدعمته فرنسا بقوة ووقعت معارك بين المسلمين والنصارى، ولم يحصل أحد الطرفين على النصر، ثم وقعت معاهدة صلح بين الطرفين، وقُسمت المجر بين الدولة العثمانية والنمسا، وتوقّفت الحرب على هذه الجبهة. ولكن فرنسا تابعت القتال في البحر المتوسط.

حاولت فرنسا التقرّب من الدولة العثمانية وتجديد الامتيازات غير أن الصدر الأعظم رفض ذلك، ثم عملت فرنسا بالتهديد، ثم صفا الجو بين الدولتين، وأُعيد لفرنسا حق حماية بيت المقدس عام ١٠٨٤هـ (١٦٧٣م).

سار الخليفة بنفسه لقتال البولونيين، وانتصر عليهم فطلبوا الصلح، وعُقد، ودفعت بولونيا الجزية. وثار البولونيون على المعاهدة، وقاتلوا العثمانيين، وانتصروا عليهم، وبقيت الحرب سجالاً، ثم عادت المفاوضات، وتم الصلح، وتنازل البولونيون للعثمانيين عن بعض المواقع.

ثار القوزاق ضد الدولة العثمانية واستنجدوا بروسيا فأنجدتهم، ووقعت الحرب بين الطرفين عام ١٠٨٨هـ (١٦٧٧م) واستمرّت

حتى عام ١٠٩٢هـ (١٦٨١م)، وانتهت بمعاهدة.

وثار المجريون على طغيان النمسا واستنجدوا بالدولة العثمانية فأنجدتهم، وانتصرت عليهم، وحاصر الصدر الأعظم فينا مدة شهرين عام ١٠٩٤هـ (١٦٨٢م)، وكادت تفتح لولا نداءات البابا إلى الدول النصرانية، وإثارة الهمم الصليبية فجاءت النجدات، وهُزم العثمانيون وانسحبوا بعد معارك طاحنة.

تمّ تحالف نصراني من البابا، والبندقية، ورهبنة مالطة، والنمسا، وبولونيا، وروسيا ضد الدولة العثمانية، وعرف هذا التحالف بـ «التحالف المقدس».

هاجمت النمسا مدينة «بودا» ودخلتها، وهُزمت الدولة العثمانية عام ١٠٩٧هـ و ١٠٩٨هـ (١٦٨٥ و ١٦٨٦م).

وأخذت بولونيا تُغير على إمارة البغدان وتُهدّدها.

وسفن البندقية تُغير باستمرار على سواحل اليونان، وشبه جزيرة المورة وتسندها سفن البابا، ورهبان مالطة، واستطاعت أن تدخل أثينا وعدداً من المدن سنة ١٠٩٧هـ (١٦٨٥م). ونتيجة هذا عُزل الخليفة محمد الرابع عام ١٠٩٩هـ (١٦٨٧م)، وتولّى مكانه أخوه سليمان الثاني.

٢٠- سليمان الثاني:

تقدّم الأعداء في أملاك الدولة العثمانية.

أخذوا كثيراً من المواقع عام ١٠٩٩-١١٠٠هـ.

أخذت البندقية سواحل دالماسيا (السواحل الشرقية لبحر الأدرياتيك)، وبعض المواضع في بلاد اليونان.

ثار سكان المورة ضد البندقية، وطردوا جيشها من بلادهم.

استعادت الدولة العثمانية بعض المواقع من النمسا، ومنها بلغراد.

استعادت الدولة العثمانية إقليم ترانسلفانيا لسلطانها.

وتوفي الخليفة سليمان الثاني عام ١١٠٢هـ (١٦٩٠م)، وتولى مكانه أخوه أحمد الثاني.

٢١- أحمد الثاني:

احتلت البندقية في أيامه بعض جزر بحر إيجه، وتوفي عام ١١٠٦هـ (١٦٩٤م)، وخلفه ابن أخيه مصطفى الثاني بن محمد الرابع.

٢٢- مصطفى الثاني:

قاد الجيوش بنفسه فانتصر على بولونيا، وعلى روسيا، وعلى

obeikandl.com

المجر، و ولكنه هُزم أمام النمسا، ثم عاد الروس ودخلوا ميناء آزوف، كما انتصر الصدر الأعظم على جيوش النمسا ودحرهم أمامه، وانتصر الأسطول العثماني على البندقية، واسترّد بعض الجزر في بحر إيجه.

عُقدت معاهدة بجهود فرنسا بين الدولة العثمانية، والنمسا، والبندقية، وروسيا، وبولونيا عام ١١١٠هـ (١٦٩٨م) وعُرفت هذه المعاهدة باسم معاهدة (كارلوفتس) فقدت الدولة العثمانية فيها مدينة آزوف لصالح روسيا، وبلاد أوكرانيا، وإقليم بودوليا، وبعض المدن لبولونيا، وساحل دالماسيا وبعض الجزر للبندقية، وبلاد المجر وإقليم ترانسلفانيا للنمسا، وعقدت هدنة مع النمسا لمدة خمس وعشرين سنة، ولم تبق أية دولة تدفع أي مبلغ كجزية للدولة العثمانية، وبذا كانت الدول النصرانية كلها تقف في وجه العثمانيين، وكانت متفقةً فيما بينها على الوقوف في وجه تقدُّم الدولة العثمانية، والعمل على تقسيمها، وعُزل الخليفة عام ١١١٥هـ (١٧٠٣م)، وولّي مكانه أخوه أحمد الثالث.

٢٣- أحمد الثالث:

أُعلنت الحرب على روسيا، وحاصر الصدر الأعظم بلطجي

محمد القيصر بطرس الأكبر وخليلته كاترينا. وأغرت كاترينا الصدر الأعظم ففكّ الحصار، ووقعت معاهدة بين الطرفين تعهد فيها القيصر بعدم التدخل بشؤون القوزاق والتخلي عن ميناء آزوف، وعُزل الصدر الأعظم.

وقعت معاهدة جديدة مع روسيا تنصّ على هدنة بين الطرفين مدتها خمس وعشرون سنة، وأخلّ القيصر بالشروط، وكادت الحرب تتجدّد، فتدخلت الدول وعقدت معاهدة أدرنة عام ١١٢٥هـ (١٧١٣م) تنازلت فيها روسيا عن كل ما أخذته من سواحل البحر الأسود، ولكنها تخلّصت مما كانت تدفعه إلى خانات القرم.

انتصرت الدولة العثمانية أيضاً على البندقية، وأخذت ما بقي بأيدي البنادقة من جزيرة كريت وبعض الجزر، فاستنجد البنادقة بالنمسا فوقعت الحرب بين الطرفين وانتصرت النمسا، وأخذت بلغراد، وجرى الصلح عام ١١٣٠هـ (١٧١٧م)، وأخذت النمسا بلغراد، وأكثر بلاد الصرب، وجزءاً من الأفلاق، وبقيت سواحل دالماسيا للبندقية، وبلاد المورة للعثمانيين.

وسمح للروس التجار وزوّار بيت المقدس المرور من أراضي الدولة العثمانية دون دفع شيء.

احتلّ الصدر الأعظم بلاد أرمينيا، وبلاد الكرج، واحتلّ قيصر روسيا بطرس الأكبر بلاد داغستان وسواحل بحر الخزر الغربية، واصطدمت الجيوش العثمانية مع الروسية وكادت تقع الحرب بين الطرفين لولا وساطة فرنسا بناءً على طلب روسيا التي وجدت نفسها عاجزةً عن القتال، وبقي كل فريق في المناطق التي دخلها دون معارضة الفريق الآخر.

عُزل الخليفة عام ١١٤٣هـ (١٧٣٠م) وولّي مكانه ابن أخيه محمود الأول بن مصطفى الثاني.

٢٤- محمود الأول:

وفي أيامه أعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولونيا، واحتلتها روسيا، ورغبت فرنسا التحالف مع الدولة العثمانية لإنقاذ بولونيا عدواة بالنمسا وحليفتها روسيا. وأرضت النمسا فرنسا بمعاهدة فيينا، واتفقتا من جهة ثانية على قتال الدولة العثمانية.

بدأت روسيا بقتال الدولة العثمانية، واحتلت ميناء آزوف، فأسرعت الدولة العثمانية تجاه روسيا وتمكّنت من إيقاف تقدّمها في إقليم البغدان الذي احتلّوا عاصمته (ياسي).

أوقفت الدولة العثمانية تقدّم النمسا في البوسنة، والصرب،

والأفلاق، وانتصرت على الصرب، وعلى جيوش النمسا التي انسحبت من الميدان، وطلبت الصلح عن طريق فرنسا، وتمّ في معاهدة (بلغراد) عام ١١٥٢هـ (١٧٣٩م)، وتنازلت فيها النمسا عن بلغراد وعما سبق أن أخذته من بلاد الصرب وإقليم الأفلاق، وتعّهدت روسيا عدم بناء السفن في البحر الأسود، وهدم قلاع ميناء آزوف.

اتفقت الدولة العثمانية مع السويد بجهود فرنسية عام ١١٥٣هـ (١٧٤٠م).

قامت الحرب بين النمسا وفرنسا، وحاولت فرنسا الاتفاق مع الدولة العثمانية لقتال النمسا، ولكن العثمانيين رفضوا ذلك، وانتصرت النمسا.

توفي السلطان محمود الأول عام ١١٦٨هـ (١٧٥٤م)، وخلفه أخوه عثمان الثالث.

٢٥- عثمان الثالث:

وتوفي عام ١١٧١هـ (١٧٥٧م).

عاش المسلمون في البلقان في هذه المرحلة التي تقرُب من

مائتي سنة ٩٧٤-١١٧١هـ في محنة قاسية حيث لم تكن الدولة العثمانية قويةً يُمكنها حمايتهم فيما لو نشطوا في الدعوة إلى دينهم، وفي الوقت نفسه لم تكن هذه الدولة لتلتفت إلى رعاية هؤلاء الذين أسلموا حديثاً من الألبان ولا إلى أولئك الذين عرفوا إسلامهم قريباً من البشانقة. كما أن العثمانيين لم يستطيعوا كتم أنفاس الأعداء وإخضاعهم فكان المسلمون يخشون هؤلاء الأعداء الذين شحنوا بالحقد ضدّ الإسلام والمسلمين حيث هناك أمل بانتصارهم وسيطرتهم فبين المدة والمدة يُعلنون التمرّد، أو يقومون بالثورة، أو يتحالفون مع الدول الأخرى بل ويحصلون على النصر أحياناً.

وهكذا عاش المسلمون في البلقان بين الخوف وعدم الاهتمام بهم.